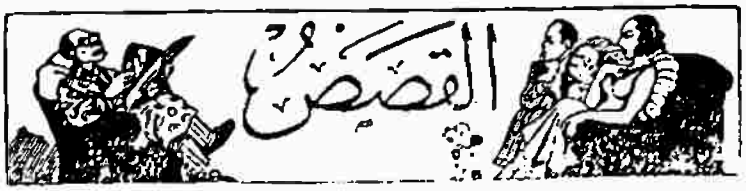

مقهى سوراط

قصة عن ليو تولستوى

للاستاذ رمزى مزين

كان فى مدينة سوراط فى الهند مقهى يؤمه خليط من مختلف الأجناس والأديان ، وفى ذات يوم وفد إلى المقهى رجل مهيب الطلعة وفى صحبته عبد أسود يقوم على خدمته وكان هذا الرجل عالماً روحانيا من بلاد فارس قضى جل عمره فى قراءة كتب اللاهوت ودراستها والبحث عن ذات الله وسر وجوده . وكانت نتيجة بحثه أن اختلطت عليه الأمور وأنكر وجود إله يدير هذا الكون على الإطلاق . ولما علم الشاه بأمره نفاه من البلاد ، فراح يرتحل من بلد إلى بلد حتى انتهى به المطاف إلى هذا المقهى فى مدينة سوراط

طلب العالم لنفسه كوباً من شراب الأفيون بينما جاس العبد على حجر خارج الباب يذب عن أنفه الذباب ولما استقر الأفيون فى جوف العالم ومرى فى عروقه مفعوله ، التفت إلى عبده وسأله :

— قل لى أيها العبد التعس ، هل تؤمن بوجود الله ؟ فقال العبد — نعم أؤمن . ثم مد يده إلى حزامه وأخرج من تحته تمثالا صغيراً من الخشب — وقال هذا هو الإله الذى حرسنى منذ أن ولدت . ونحن جميعاً فى بلادنا نعبد الشجرة التى نصنع منها هذا الإله . وكان فى المقهى خليط من مختلف الأجناس والأديان فأدهشهم سؤال العالم وجواب العبد ، ثم انبرى لهما رجل من أتباع براهما وقال مخاطباً العبد — يالك من نفس أحمق . . كيف تعتقد أن رجلا مثلك يمكنه أن يحمل الله تحت حزامه ؟ أليس هناك إلا إله واحد هو براهما خالق هذا الكون . إن براهما هو الإله الأعظم الذى من أجله أقيمت الهيا كل العديدة على ضفاف نهر الكانج حيث يقوم على عبادته الكهنة الورعون . ولقد مضى على ظهور براهما عشرون ألف سنة جرت خلالها ثورات وثورات ومع ذلك فان شيئا لم يستطع أن يعصف بأولئك الكهنة لأن براهما — — الإله الواحد الحق — كان يحميهم طوال هذه السنين

وما انتهى البرهمى من حديثه حتى رد عليه صيرفى يهودى قائلا — ما هذا الذى تقوله ؟ إن معبد الإله الحق ليس فى الهند وليس الاله الحق بإله الهنود . . وإنما هو إله إبراهيم وإسحق ويعقوب . . وهو لا يحمى إلا بنى إسرائيل شعبه المختار . . وإذا كنت ترانا اليوم مشردين فى أنحاء الأرض فما ذلك إلا لتجربتنا وامتحان إيماننا . . ولقد وعدنا الله أن يجمع شملنا فى القدس مرة أخرى ، ومنها سوف نبسط سلطاننا على العالم بأسره . قال اليهودى هذا وانفجر ماكيا وكان يريد الاسترسال فى حديثه فقاطعه مبشر إيطالى كان حاضراً بقوله — إن ما تقوله غير صحيح . . وأنت إنما تنسب الظلم إلى الله بدعواك هذه . فالله لا يفضل شعبا على شعب وإنما يدعو الذين يبتغون الخلاص أن ينتموا إلى كنيسة روما الكاثوليكية إذ أنه لا خلاص لمن لا ينتمى إليها . وكان من جملة القوم قسيس بروتستانتى فساءه

اسمه ابن منقذ ولابد أنه وضع كتاباً عن رحلته . فدليل نقله عنه أنه زار بستانا بجوار فاس يقال له البحيرة علم أن إيراده بلغ كل سنة خمسة وأربعين ألف دينار ، وبه بركة ماء مربعة فاس كل ضلع منها فإذا به مائتان وستة عشر ذراعا وبها ما هو أكبر من ذلك

أحمد رمزى

تصويب لغوى

قرأت فى العدد ٩١٧ من مجلة الرسالة الزاهرة كلمة عن طول العمر وقصره فى البريد الأدبى للدكتور حامد الشواربى وجاء فى ثنايا كلمته (أرأيت إلى من يدهسه ترام) ولم يسمع عند العرب استعمال دهس بهذا المعنى فالصواب أن يقال (داسه) مستعاراً من الدوس بالأقدام ولعل دهسه محرف من دعسه أى وطئه شديدا

بغداد عبد الخالق عبد الرحمن

قول البشر وقال له بصوت مرتجف — إن ما تقوله خطأ محض ، فليس الخلاص مقصوراً على اتباع كنيستكم ، بل هو من نصيب كل من يخدم الله مخلصا حسب تعاليم الإنجيل . هكذا قال السيد المسيح

وكان من بين الحاضرين تركى من موظفى الجمرك فنظر إلى هذين المسيحيين شزراً وقال بترفع — إن إيمانكم بالديانة المسيحية أصبح باطلاً منذ أن حل محلها الدين الإسلامى الحنيف . إن هذا الدين هو دين الله الحق وليس أدل على صحته من تلك السرعة الهائلة التى انتشر بها فى ربوع أفريقيا وأوروبا وحتى فى بلاد الصين المستنيرة إنه لا خلاص إلا لأتباع محمد آخر المرسلين

وأثار قول هذا التركى ضجة بين الحاضرين فاشتبكوا فى جدال حامى الوطيس . ولم يبق أحد لم يشترك فى هذا الجدال إلا رجل واحد صينى من تلاميذ كونفوشيوس كان قابعا فى ركن من أركان المقهى يشرب الشاى ويصغى إلى ما يقوله المتخاصمون . ووقعت عينا التركى عليه صدفة فاستفزه به قائلا — أراك ساكتا لا تتكلم ، ولكنى أعتقد أنك فى قرارتك توافقنى على رأيى . فأنتم معشر الصينيين ، على الرغم من كثرة الأديان فى بلادكم ترون أن الديانة الإسلامية هى أفضل الأديان وتعتنقونها عن طيب خاطر . فهلا أنجدتنى أيها لنا عن رأيك فى الله وفى رسوله ؟ فهتف الجميع قائلين — نعم ، نعم ، أسمعنا رأيك فى الموضوع . . فأغمض تلميذ كونفوشيوس عينيه وفكر قليلا ثم فتحهما وطوى يديه على صدره وقال بصوت هادئ رزين :

« يبدو لى أيها السادة أن التعصب أو العصبية وحدها هى التى تحول دون اتفاق الناس فى أمور الدين . سأروى لكم قصة توضح ما أعنيه

« لقد قدمت هذه البلاد على ظهر باخرة إنكليزية ومررنا بطريقنا على مختلف البلدان . ولما وصلنا إلى جزيرة سومطرة نفد منا الماء فنزلنا إلى الشاطئ لنتزود بحاجتنا منه . وكان الوقت ظهرا فجلسنا تحت ظل أشجار جوز الهند على مقربة من إحدى القرى . وكنا خليطا من مختلف الأجناس . . ولم نلبث قليلا حتى اقترب منا رجل أعمى علمنا فيما بعد أنه فقد بصره لكثرة ما كان ينظر الى الشمس لمعرفة كنهها وكيفية انبثاق النور منها . فكانت نتيجة بحثه فقدان بصره وعقله فى آن واحد . وجلس الأعمى الى جوارنا وأخذ يحدث نفسه بصوت مرتفع — إن نور الشمس لا يمكن أن يكون سائلا وإلا كان من الممكن صبه من وعاء الى آخر . وهو لا يمكن أن يكون ناراً وإلا أطفأه الماء . ولا يمكن أن يكون الضوء روحا لأنه يرى بالعين . كذلك فهو ليس مادة لأن المادة يمكن تحريكها . وما دام ضوء الشمس ليس سائلا ولا ناراً ولا روحا ولا مادة فهو إذن « لا شئ » . وكان فى رفقة الأعمى خادم ، وكان منصرفا عن حديث سيده الى عمل مصباح من جوزة الهند ، فقتل فتيلا من قشرتها وعصر الزيت من اللب وصبه فى القشرة وأدلى الفتيل فيها . والتفت اليه الأعمى بعد قليل وقال — قل لى أيها العبد ، ألم أكن محقا حين قلت لك إنه لا وجود للشمس ؟ ألا ترى هذا الظلام يلف العالم بردائه ؟ ومع ذلك فإن الناس يزعمون أن الشمس موجودة . . فإذا كانت موجودة فملا فما هى وما كنهها ؟ فرد عليه الخادم بقوله — أنا لا أعرف ما هى الشمس ولا يهمنى أن أعرف ، فليس هذا من شأنى . ولكنى أعرف ما هو النور وها أنا قد صنعت مصباحا أستطيع على ضوئه أن أقضى لك حاجاتك عندما يحل الظلام . قال هذا ثم رفع المصباح بيده وقال — هذه هى شمسى . وكان إلى جوارنا رجل أعرج فلما سمع ما دار بين الأعمى وخادمه انفجر ضاحكا وقال مخاطبا الضرير : يبدو لى أنك ولدت أعمى وإلا عرفت ما هى الشمس . إن الشمس يا صاحبى كرة من نار ترتفع كل صباح من البحر ثم تعود فتتوارى بين جبال جزيرتنا كل مساء . إن كل سكان الجزيرة يعرفون ذلك ولو كنت مبصراً لأمكنك التحقق بنفسك من صدق الخبر

وما انتهى الأعرج من كلامه حتى انبرى له سيد سمك قائلا — يظهر لى أنك لم تغادر جزيرتك هذه قط . فلو أنك لم تكن أعرج وطفت البحار مثلى فى قارب للصيد لعرفت أن الشمس لا تغرب بين جبال جزيرتنا أبدا ، ولأدركت أنها كما تشرق من البحر كل صباح فهى تغرب فيه كل مساء . ولك أن تصدق ما أقول لأنى أرى ذلك بعينى كل يوم

وكان بيننا هندى من عبدة الشمس فقاطعه قائلا — يدهشنى أن أسمع شخصاً عاقلا مثلك يهذى بهذا الكلام . كيف يجوز

أن تقطس كرة من نار فى الماء دون أن تنطفئ . إن الشمس ليست كرة من نار قطعا وانما هى الاله المعروف باسم (ديفا) الذى يركب عربته ويدور بها باستمرار حول جبل فيدو الذهبى ويحدث فى بعض الأحيان أن تهجم عليه الحيتان اللعينتان (راجو) و (كيتو) وتبتلعانه فيسود الأرض الظلام . فينصرف الكهنة إلى الصلاة لخلاص الاله فلا يلبث أن تقذفه الحيتان ويبدد ضوءه الظلام من جديد . إن الأغبياء الجهلة من أمثالك الذين لم يبرحوا جزيرتهم قط ، هم الذين يعتقدون أن الشمس لا تضىء إلا بلادهم وحدها فقط . وهنا انبرى للهندى ربان سفينة مصرى كان معنا وقال له – إنك مخطىء أيضاً . إن الشمس ليست إلها ولا هى تدور حول الهند وجبلها الذهبى فقط . لقد طوفت أنا فى مختلف البحار ومررت بجميع البلاد وكنت أرى الشمس فى كل مكان . فهى لا تدور حول جبل معين ولكنها تشرق من أقصى الشرق وراء جزر اليابان وتغرب فى أقصى الغرب وراء الجزر البريطانية . وكان المصرى يرغب فى مواصلة حديثه لولا أن قاطعه بحار إنجليزى من سفينتنا بقوله – ما من بلد تعرف عن الشمس وحركتها اليومية أكثر من بلاد الإنجليز . فنحن معشر الإنجليز نعرف أن الشمس لا تشرق من أى مكان وإنما هى تدور حول الأرض باستمرار . وكل من معى فى هذه السفينة يمكنه أن يؤكد لكم هذه الحقيقة . فلقد طوفنا بجميع أطراف العالم ومع ذلك لم نصطدم يوما بالشمس فى أى مكان . بل كنا أنى اتجهنا نجدها تشرق فى الصباح وتغرب فى المساء كما هو شأنها هنا فى هذه الجزيرة . قال البحار هذا والتقط عصا وأخذ يرسم على الرمل أشكالا يشرح بها حركة الشمس فى قبة السماء ولكنه لم يستطع أن يوفى الشرح حقه فالتفت إلى ربان السفينة الإنجليزى وقال – إن هذا السيد يعرف عن الشمس أكثر منى وهو يشرح لكم أمرها . وكان الربان طيلة الوقت ساكتا يصغى إلى ما يقال فلما طلب اليه البحار أن يتكلم واتجهت إليه الأنظار تنحنح وقال – الواقع انكم تضللون بعضكم بعضا وجميعكم مخطئون . إن الشمس لا تدور حول الأرض وإنما الأرض هى التى تدور حول الشمس وهى تدور فى الوقت نفسه حول نفسها مرة كل يوم وبذلك يتعرض كل بلد على سطحها لضوء الشمس على التعاقب . فمخطىء من يقول إن الشمس لا تضىء إلا جبلا واحدا أو جزيرة واحدة أو بحرا واحدا . فهى فى الواقع تضىء كل الكواكب ومن جملتها الأرض التى نعيش عليها . ولو أنكم نظرتم الى السماء متأملين لا تضحت لكم حقيقة الأمر ولما عدتم إلى القول بأن الشمس تضىء لكم وحدكم أو لبلدكم دون غيرها .. وتوقف تلميذ كونفوشيوس قليلا عن الكلام ثم استطرد – وكذلك الأمر أيها السادة فى أمور الدين ، فإن الكبرياء أو التعصب وحده هو سبب هذه الخلافات بين الناس ، والذى ينطبق على الشمس ينطبق على الله .. فكل واحد يريد إلها خاصا به أو إلها خاصا ببلده على الأقل .. وكل أمة تريد أن تحصر فى معابدها الخاصة ذلك الإله الذى لا يتسع له الكون بأسره .. هل هناك من معبد يضاهى ذلك المعبد الذى صنعه الله ليجعل الناس فيه على دين واحد لا غير .. ؟ إن جميع معابد البشر قد بنيت على نمط معبد الله الأكبر ، ولكل منها حوض وقبة ومصابيح وصور وتماثيل ومخطوطات وأنظمة ومذابح وكهنة . . ولكن أى حوض من هذه الأحواض يضاهى حوض الأوقيانوس؟ وأية قبة تضاهى قبة السماء ، وأين هذه المصابيح من الشمس والقمر والكواكب .. وأين تلك التماثيل الجامدة من بنى البشر الأحياء الذين تربط بينهم المحبة والتعاون . وأين قوانين البشر من قوانين الله ، وأية تضحية أعظم من تضحية بنى البشر المحبين بعضهم لبعض ، وأى مذبح اعظم من قلب الرجل الطيب المؤمن ؟ ان المرء كلما تعمق فى فهم الله ازداد به علما ، وكلما ازداد علما به ازداد منه قربا وبات مثله حنونا طيبا ومحبا لأخيه الإنسان . . فليكف إذن من يرى ضوء الشمس يغمر الكون بأسره عن لوم ذلك الأحمق الذى قعد به خموله عن أن يرى سوى شماع واحد من ذلك الضوء الباهر . وليكف أيضا عن احتقار الكافر الذى فقد بصره ولم يعد يرى الشمس المنيرة

بهذا خاطب الصينى تلميذ كونفوشيوس – رواد المقهى – فسكت الجميع وأفحموا ، وكف كل منهم عن الادعاء بأن دينه أفضل الأديان

رمزى منقريوس